بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة أ.د. عبد الفتاح الزم في المؤتمر الدولي للإمام أحمد رضا

(باكستان/كراتشي)

الإمام أحمد رضا في ضوء حاشيته على الدر المختار

الحمد لله الذي نشر لاهل العلم أعلاما، وثبت لهم على الصراط المستقيم أقـداما، وجعل مقام االعلم أعلى مقام، وفضل العلماء بالحجج الدينية ومعرفـة الأحكـام، وأودع العارفين لطاءف سره فهم أهل المخاضرة والإلهام، ووفق العاملين لخدمة دينه فهجـروا لذيد المنام، وأذاق المجين لذة قربه وأنسه فشغلهم عن جميع الأنام.

أحمده – سبحانه – على جزيل الإنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك العلام. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه واله وسلم عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام كل إمام وعلى آله وصحبه وأزواجه وذرياتـه الطـاهرين صـلاة وسـلاما متلازمين إلى يوم الزحام.

وبعد:

فعجب أمر أمتنا هذه! كم كاد لها أعداؤها وكم طعنوها وكم طعنوهـا وأجهـزوا على جراحها حتى ظنوا أهم قادرون عليها، وفي كل مرة ينتفض من تحت رمادها مـالم يكونوا يحتسبون له، ولئن كان هذا عجيبا في تاريخ أمتنا العلوم في تاريخ العلم أعجيب.

فإن الدارس لتاريخ المسلمين العلمي والفكري يجد أن ازدهار الحركـة العلميـة وازدياد النشاط الفكري في مجالات العلم ولتحقيق والتأليف لم يكن مرتبطا دائما بالتقـدم السياسي والازدهار الدنيوي، بخلاف الأمم الأخرى التي يرتبط فيها النشاط العلمي بقـوة الدولة وازدهارها في النواحي الدنيوية لما أن التشجيع والاحتضان لأهل العلم مـن قبـل السلطات الزمنية هو أهم عامل في نمو التيار العلمي وتشجيع البحث والتأليف فـي تلـك الأمم.

أما أمتنا فشأنها يختلف عن ذلـك، فكم نبغ فيها نوابغ جليلة حفرت اسمها على صفحه التاريخ بما قدمت وما أثرت به مكتبة الإسلام من زبدة أفكار وإشراق عقـول.... مع أن الزمن الذي ولدت فيه هذه النوابغ ليس مهيئا لصناعة أمثالهم.

فمن يوم سقط بغداد في المرة الأولى إثر هجمات الجـراد المنتـشر مـن التتـر وأحوال المسلمين تزداد سوءا والضعف يستفل في جسم هذه الأمة.... والهزاءم العسكرية تتوالى.

ومع كل هذا لم تنفك رحم العلم والإبداع تلد لعالم نماذج مبـذج مبدعـة وقممـا شامخة من قمم العلم والعمل، وفي الفنون المختلفة والتخصصات المتشعبة. ولا يـزال الله يمن على هذا الدين بالمنن والعطايا، ومن أعظم هذه العطايا هؤلاء الرجال الذين جعلهـم الله منارات هاديات على طريق السائرين إليه في معرفة أحكامه في عباداتهم وتعـاملاتهم حتى لم يخل زمن من الأزمان عن إمام السائرين إليه في معرفة أحكامه فـي عبـاداتهم وتعاملاتهم حتى لم يخل زمن من الأزمان عن إمام وأئمة أعلام وصدق رسول الله صلى الله عليه واله وسلم القائل: "يحمل هذا العم من كل خلف عدوله ينفنون عنه غلو الغـالين وانتحال الجاهلين"

ومن علوم الإسلام التي حظيت بالنصيب الأوفر والأوفى علوم الفقـه الإسـلامي التي هي كالغاية وعلوم السلام أكثرها لها كالوسيلة.

ومن مدارسه التي كان لها قصب السبق والقدح المعلى في هذا الفقه الحنفي الذي امتن الله بإمامه على هذه الأمة فكان مفخرة عظيمة نفاحر نفاخربها الأمم. إنه إمام الأئمة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت (150هـ ـ). ولا تزال مدرسته عامرة من بعده بتلامذيه وتلامذتهم حتى وصل إلينا الميراث محققا على أيدي أعلام، فذابت فـي خدمـة المذهب عيون، وأنفق مع العرق عصارة الأفكار التي هي أغلى من الذهب، وسالت على أودية القراطيس أنهار مداد هي أغلي وأطيب من الدماء.

وهذا العلم إرث شريف يأخذه الخلف عن السلف، ومع ذلك فلكل مجتهد نـصيب، وكم حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فكان ممن أخذ عـن الـسلف وزاد وأبدع العلامة محمد أمين عابدين الذين أخذ العلم عن شيوخه كالجلبي والعقاد (الشيخ سعيدالجلبي وشاكر العقاد) وغيرهم وكان خيـر أرض أنبتت من هذا الماء أ طيب الزرع. فلقد أزهر الفقه وأورق على يديه حتـى فـاق شيوخه الذين أخذ عنهم وأتى بمصنفات رائقة لا تزال- على الأيام –آيات تنطق بـ ـ ـ : كم ترك الأول للآخر.

ومن أعظم مؤلفاته بل هي أعظمها: حاشية على الدر المختار للحـصكفي عـلاء الدين التي سماها: (ردالمختار على الدرالمختار) التى كانت – ولا تـزال- فـى عـالم التحقيق والتحرير وضبط الفتوى والالتزم بقواعده في مذهبنا فتحا عظيما تلقاهـا النـاس بالأكف ووضعوها على الرؤوس وصارت ضجيع المفتين ورفيق القضاة والمتفقهين، إلى درجة ظن كثير من طلاب المذهب أن العلم توقف عند هذا الحد فلا مزيد لـم يزيـد وأن الحقيقة فضل الله لا يحده حد والخير في هذه الأمة لا ينقطع.

فحاشية ابن عابدين الشامي حقيقة بكل خير وفضل لكنها ليست نهاية المطاف فلا يزال طواف هذا العلم مازال اليل والنهار، ويحدث للناس أحكام وأقضية كلما أحدثو جديد في حياتهم وأمورهم كما قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز- ولكن الواقع أن بعض أهل العلم من أهل الرسوخ والتثبت قاموا بواجب الإكمال والتتميم فكتبو على هذه الحاشية وألفوا بعدها كتبا ينادون بها على سمع الناس أن: فضل الله يؤتيه من يشاء متقدما كان أو متأخرا.

فكتب كثيرون كتبا مستقلة كتلميذ العلامة ابن عابدين وهو الـشيخ عبـد الغنـي الغنيمي الميداني الذي كتب شرحا على الكتاب- متن القدوري وكتب الشيخ عبد الحكـيم الأفغاني كتبا كذلك. وشرحت المجلة (مجلة الأحكام الشرعية) شروحا وكتـب الأفاضـل الماصرون تحت عنوان المدخل الفقهي فأثرو فأثروا في بابهم. جزى الله الجميع خيرا.

ولكن من أعظم ماكتب وألصق بحاشية العلامية الشامي هو ما يسمى بالتقريرات على هذه الحاشية، كتب عليها تقريرات عدة منها تقريرات الشيخ عبد القـادر الرافعـي المصري المطبوعة مع الحاشية وغيرها.

ثم نسي فن التقريرات – فيما نعلم- حتى ورد علينا كتاب عظيم قبـل سـنوات يسرير على هذا السير وهو كتاب (جد الممتار على ردالمختار) للسيد أحمد رضـا خـان (1340) هـ ـ فكان بمثابة العود إلى الجو العلمي الذي تناساه قراء الحاشية وهـو جـو الضبط والتحرير للمسائل وتتبع التاملات والنظر مـن جديـد فـي مختـارات الفتـوى والتصحيحات، فقد أضاف هذا الكتاب إلى الفقه أمورا جديد أجمل بعضها ثم أذكر عليهـا بعض أمثلة من الكتاب بينة على ما أدعي.

ولا بد قبل الخوض في عمل العلامة الشيخ أحمد رضا خان من أن أعرفه بكلمات لأختم في نهاية البحث بترجمة بإجاز:

هو واحد من كبار العلماء والفقهاء في عصره، إذ عرف بتضلعله في العلوم عامة وفـي الفقه الحنفي خاصة، ساعده على بلوغ هذه المرتبة عوامل عدة:

1- هو من أسرة علمية: فوالده نقي على خان من أبرز علماء الحنفية في بلده، وجده رضا علي خان من العلماء الصوفية، فلا غرو أن يخرج من هذه الأسرة رجل كالـشيخ أحمد رضا.

2- طلبه العلم على يد كبار علماء عصره منذ سن مبكرة، لم يكن عدد شيوخه كثيرا، إنما كانوا من الكبار منهم والده والشاه آل الرسول والشاه أبو الحسين أحمد النوري وغلام قادربك وعبد العلي الرامفوري وغيرهم.

3- همته في طلب العلم واشتغاله بتحصيله وساعده على ذلك ذكاء حاد ونبوغ مبكـر وسعة في المطالعة.

4- اشتغاله بالتصنيف: إذا التصنيف وسيلة هامة من وساءل سعة العلم والأفق، فقـد بلغت مؤلفات المئات حسمايحصيها تلاميذ ومترجموه، تنوع بين علـوم التفـسير والفقـه وأصوله والحديث والعقيدة والتصوف وغيرها، لكن الذين عدوا مؤلفاته أدخلو في العـدد الكتب التي طالعها وعلق على هوامشها فجعلوها من حواشيه.

5- اشتغاله بالردود والمناقشات مع العلماء من أبناء عصره الـذين يخالفونـه فـي المنهج، والعناية بهذا الباب تثري علم الرجل وتوسع اطلاعه، بشرط أن يكون ذلك ضمن

ضوابط وآداب الحوار الإسلامي، لكن مـا يؤخذ على الإمام أحمد رضا هو شدته على خصومه، وغالب مسائل الخلاف كانت فرعية.

هذه أهم عوامل نبوغه، وقد اشتهر بتمكنه في الفقه الحنفي حتى اعترف له بـذلك خصومه، لا سيما من خلال فتاواه الكبرى ((العطايا النبوية في الفتاوي الرضوية)) ومـن خلال حاشيه على رد المختار والدر المختار المسماة بـــ ((جد الممتار)).

وبعد هذه اللمحات السريعة حول العلامة الشيخ أحمد رضا خان وحاشية (جد الممتـار) أذكر طرفا مما اشتهر به الشيخ رحمه الله تعالى فأقول ولد سنة (1272هـــ) ببلـدة (بريلي) واشتغل بالعلم على والده، ولازمه مدة طويلة حتى برع في العلم وفاق أقرانه في كثير من الفنون لا سيما الفقه واصوله، كان متشداد في المسائل الفقية والكلاميـة، شـديد المعارضة، دائم التعقب، متبحرا كثيرا المطالعة، واسع الاطلاع، له قلم سيال وفكر حافل في التأليف، كان رحمه الله شديد الإعجاب بنفسه وعلمه، قليـل الاعتـراف بمعاصـرية ومخالفيه، يندر نظيره في عصره في الإطلاع على الفقه الحنفي وجزئياته، يشهد له بذلك مجموع فتاواه ومؤلفاته. كما كان راسخا طويل الباع في العلوم الرياضية والهيئة والنجوم والتوقيت، مشاركا في أكثر العلوم. أخذ عليه أمور تحتاج إلى تحقق وتدقيق، ولكن قدمـه الراسة في العلم، وما خاف من تآليف جمة وأعمال علمية كثيرة تشفع له وإني لأسأل الله له ولجميع علماء المسلمين الأفذاذ الرحمة والرضوان وأن يرزقنا جميعا العمل الخـالص لوجهه ويجعلنا من الذين أخلصوا عملهم لله سبحانه. إنه خير سميع وخير مجيب. والحمد لله رب العالمين.

أ.د.عبد الفتاح البزم

مفتى دمشق ـــ مديرمعاهد الفتح الإسلامي بدمشق